الفصل الخامس

إعدادى وثانوى

بيبصوا لى ليه؟!

قويسنا هذه المدينة الهادئة الجميلة التى تتبعها قريتنا هى مركز من مراكز محافظة المنوفية، هذه المدينة التى تبعد عن بلدتنا حوالى أربعة كيلومترات، وكانت تسمى «عزبة صبرى باشا» مدير مديرية المنوفية وقتها، وقيل إن سبب تسميتها بقويسنا ترجع إلى قرية قريبة منها هى قرية قويسنا البلد، التى وُلد فيها وسكنها الشيخ حسن بن درويش القويسنى شيخ الأزهر من عام 1834 إلى 1838، وضُمَّت هذه القرية إلى عزبة صبرى باشا وسُميت المدينة باسم هذه القرية «مدينة قويسنا» وهى المقصد لكل أبناء القرية وكل القرى المجاورة فى قضاء حاجاتهم. وتوجد بقويسنا مدرستان، مدرسة إعدادى ومدرسة ثانوى، وكان أولاد كل البلاد حولها يأتون إليها بعد الابتدائية للتعليم الإعدادى والثانوى، وكان ذهابنا ورجوعنا فى هذا الوقت سيرًا على الأقدام، حيث نقطع كل هذه المسافة يوميًا فى الصباح وبعد الظهر، وكان ذلك فى هذه الفترة فى أواخر السبعينيات من القرن الماضى.

وكانت مدرسة المساعى الإعدادية التى ذهبت إليها تقع بجوار مسجد المساعى، وعلى بعد خطوات منها مركز شرطة قويسنا وبالقرب منها الشارع الرئيسى فيها وهو الشارع العمومى أو شارع الجيش. وعندما دخلت المدرسة من أول يوم نشطت حالة من التساؤل من هذا الولد؟ وكيف يكتب؟ ومجموعه فى الابتدائية؟ وما حكايته؟ هذه الأسئلة دارت فى أذهان المدرسين والتلاميذ وكانت تُلقى فى وجهى كثيرًا وكنت أرد بشىء من الفخر وعزة النفس الممزوجة بالشكر والحمد لله الذى وفقنى لهذا.

لكن من الأمور التى آلمتنى كثيرًا وسببت لى ضيقًا كبيرًا أننى لم أكن أسير فى طريق فى أى مكان من هذه المدينة إلا وأجد كل الوجوه تصوب العيون تجاهى، فكنت أتساءل لماذا ينظرون إلىَّ بهذا الشكل؟ ومن يقترب منى أدفعه عنى بنظرة غضب شديدة أو أقف فجأة فيحول عينيه عنى خجلًا، فأنا لم أعتد على ذلك من الناس فى قريتى، فكل من أتعامل معهم ليس لهم هذه النظرة ولا هذا الفضول. ورأى أبى فى وجهى تغيرًا وفى تصرفاتى وسلوكى ضيقًا يظهر فى غضب أو تعد على إخوتى فأحس أن شيئًا ما يسبب لى هذا الضيق وهذا التغير، فسألنى، فقد كان طبيبى فى هذه الحياة: ماذا فى الأمر؟

فتجاسرت وقلت إن الناس كلما سرت أو وقفت أو تحركت تلاحقنى عيونهم، «عايز أعرف بيبصوا لى ليه».

فاستمع إلىَّ جيدًا ثم قال لى: وماذا فى الأمر؟

فعجبت وسألت: لماذا أنا تحديدًا دون بقية الناس؟

فقال: لأنك مختلف، شكلك مختلف، وهناك نقص فى جسمك، فطبيعى أن ينظرون إليك، وعليك ألا تلتفت إلى هذا، وشرح لى أن الناس لابد أن تنظر إليك لأن ليس لك ذراعان طويلان، وهذا يلفت النظر ويشد إليك الانتباه. والحالة الوحيدة التى تدفع فيها عن نفسك عندما يتزيد أحدهم ويسألك بأسئلة كيف؟ ومتى؟ هنا يمكن ألا تجيب وتعرض عنه، أو يكون صدرك واسعًا وتقول إن هذا من خلق ربنا يعنى «ربنا خلقنى كدا» وهذا ستجده كثيرًا.

فسألت: لماذا الناس فى البلد لا تنظر لى بهذا الشكل؟

فرد على: لأن الناس فى البلد اعتادوا عليك وعلى شكلك وتعاملوا معك وعرفوك، لذلك لا ينظرون إليك بهذه الطريقة، ومعظم من فى قريتنا الصغيرة إما قريب أو جار أو زميل أو صديق، والقرية صغيرة يعرف الناس بعضهم بعضًا ثم قال قولته المأثورة لى التى بقيت وستبقى، وقال:

اجعل نظرة الناس إليك تتجاوز الشكل، اجعلهم ينظرون إلى نجاحك إلى أخلاقك إلى تفوقك، اجعل نظراتهم إليك نظرات إعجاب بهذه الشخصية الناجحة، ثم دعك من هذه الأشياء وعليك أن تجتهد وتثبت لهم ولغيرهم أنك جدير بنظرة الإعجاب والتقدير وليس بنظرة العجز أو العطف أو مصمصة الشفاه، ولا تسمح لأحد أن ينظر إليك هذه النظرة.

كانت هذه الجلسة بينى وبين الوالد ـ رحمه الله ـ وأنا مازلت أخطو أولى خطواتى فى المدرسة الإعدادية مدرسة المساعى بمثابة جلسة مهمة جدًّا فى حياتى، حيث كان فيها صريحًا للغاية وكان بالقدر نفسه حريصًا

على أن أتفهم الأمر جيدًا. لكن هذا الكلام لطفل يغادر الطفولة ويبدأ أولى درجات الصبا والمراهقة لابد أن تعقبه وقفات ووقفات، ولعل هذه الوقفات هى التى ثبتت الأرض تحت قدميه طوال حياته، بعد أن خرج منها معافى خلوًا من اليأس مخزونًا باليقين مملوءًا بالثقة فى نفسه وفى ربه الذى كان يناجيه بالساعات وهو فى هذه السن الصغيرة.

ومازلت أذكر بعض المواقف والصور عندما أسترجعها أجد أن سنى لم يكن يحتمل كل هذه الضغوط النفسية: نظرات الناس التى لم أكن أعتادها، والتغيرات الكثيرة التى تحدث أمامى، بالإضافة إلى التغيرات الفكرية والعقلية فى فترة المراهقة وما يكون فيها من تجاوزات تبدو طبيعية فى هذه الفترة من الحياة. فعلى الرغم من كلام الوالد العاقل الذى لا يُرَد فهناك طفل يرى الناس تلاحقه بعيونها أَنَّى راح أو جاء، لذلك حدثت لى بعض الأمور التى رسَّخَت عندى قناعة بما قال أبى، هذه الأمور قد لا يتخيل أحد أن طفلًا فى هذه السن يفعلها أو يفكر فيها خصوصًا فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه، لكن الحالة التى طرأت عليه كانت سببًا فى وقفته أمام المرآة وسؤاله إلى الله عن خلقته وعن النقص الكائن فى جسده، والذى فتح جرحه وأظهره له الناس بعيونهم التى تلاحقه وفضولهم الذى يمكن أن يطلق عليه «رب ضارة نافعة»، لأن ذلك أنتج حوارًا بينه وبين نفسه وأنتج علاقة وثيقة بربه لكن كيف؟

المرآة وأمنية النوم وسؤال إلى الله

كانت هذه الفترة من حياتى فترة حرجة ودقيقة، ذلك أنها فترة التساؤلات الكبيرة التى تراود الإنسان الطبيعى الذى يفكر، ولابد له من

إجابات شافية عن أسئلته، ذلك بالنسبة لقضايا الإنسان الكبيرة كقضية الإيمان وقضية الوجود وقضية الخالق وباقى الأسئلة التى تبدو طبيعية فى هذه المرحلة. إضافة إلى ذلك، التساؤلات الخاصة بى، مثل طبيعة الخلق وشكل الجسم، التى أثارتها ملاحقة العيون، والجانب النفسى الذى أقض مضجع نفسى فلا يستقر لها بال.

ولعل الجمع بين هذه الأسئلة من الأمور الطبيعية فى هذه المرحلة، مرحلة المراهقة، حيث كان سنى على مشارف أربعة عشر عامًا؛ وكما يقول عنها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن العيسوى أستاذ علم النفس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية فى كتابه علم النفس العام: «ومن أبرز خصائص النشاط، العقلى فى فترة المراهقة أنه يأخذ فى البلورة والتركيز حول نوع معين من النشاط، كأن يتجه المراهق نحو الدراسة العلمية أو الأدبية بدلًا من تنوع نشاطه واختلاف اهتماماته، كذلك من خصائص هذه الفترة نمو قدرة المراهق على الانتباه، فبعد أن كانت قدرته على الانتباه محدودة وكانت المدة التى يستطيع أن يركز انتباهه فيها نحو موضوع معين لمدة محدودة أيضًا يصبح قادرًا على تركيز انتباهه لمدة طويلة، كذلك تنمو القدرة على التعلم والتذكر فبعد أن كان تذكره تذكرًا آليًا أى تذكرًا يقوم على أساس السرد الآلى دون فهم لعناصر الموضوع يصبح تذكيرا يقوم على أساس الفهم وعلى أساس إدراك العلاقات القائمة بين عناصر الموضوع الذى يتذكره» ص 284. ويقول أيضًا: «يمتاز النمو العقلى بالسرعة فى مرحلة المراهقة والنضج، حيث يصبح المراهق قادرًا على التفكير فى الأمور المعنوية المجردة، ويعنى ذلك نمو الذكاء والقدرات الخاصة والميول والاتجاهات، ويصبح تفكيره أكثر دقة ونضجًا، ويميل

إلى التفكير النقدى، ويعيد النظر فى كثير مما سبق أن تقبله فى المراحل السابقة عن طيب خاطر» ص 291.

وما قاله العلامة عبد الرحمن العيسوى هو وصف دقيق لما حدث لى فى هذه الفترة، لكن مع الأخذ فى الاعتبار الحالة الخاصة التى أَمرُ بها والتى وصلت أحيانًا إلى مرحلة الأزمة النفسية. فكل ما كنت أَمرُ به فى طريق الحياة كنت أجد له حلًا لأنه فى يدى، أما الذى يحدث فى هذه المشكلة كان طرفه الآخر الناس ونظراتهم ومواقفهم، خاصة عندما خرجت إلى مدينة قويسنا، فحدثت بعض المواقف والمشاهد المؤثرة التى عندما أتذكرها الآن وأنا فى هذه السن يخفق قلبى منها. على سبيل المثال، كنت أتحين الفرصة عندما تخلو الغرفة التى فيها «التسريحة» وهى عبارة عن درجين من الخشب فوقهما مرآة مربعة الشكل، كنت أنظر إلى يدى القصيرتين وأتملى فيهما جيدًا وأحرك اليمنى التى حركتها ثقيلة وبطيئة وأحرك أصابعها الثلاثة وأحاول رفعها وخفضها بصعوبة، ثم أحرك اليد الشمال وهى سهلة الحركة طيعة تأخذها إرادتى فوق وتحت ويمين وشمال حيث شاءت، والإصبعان يتحركان أيضًا بسهولة، وأظل هكذا فترة من الوقت أحرك فيهما وكأنى بتحريكهما أقول شيئًا خفيًا فى نفسى أو كأنى أبحث عن شىء. وتكررت هذه الواقعة، حتى إن أمى دخلت علىَّ يومًا وسألتنى ماذا تفعل فهربت منها بإجابة لا تقول شيئًا.

لكن الموقف الذى كان وقعه صعبًا على صبى فى سنى وفى مرحلة قلقة من عمرى، هو ما حدث ليلًا حين كنت ألبس فانلة بحمالتين ويداى مكشوفتان، وقد حدث ذلك كثيرًا من قبل، لكن هذه المرة كانت مختلفة للظروف النفسية التى كنت أمر بها، شعرت كأنى لم أرها من قبل

واستحضرت نظرات الناس إلى هاتين اليدين بصورتهما اللتين أراهما الآن بهذا الشكل، ولأنى وقتها كنت وحدى الضيق أن يهلكنى، فأخذت فى البكاء الشديد وبدأت أردد: لماذا أنا هكذا؟ ولماذا يداى قصيرتان بهذا الشكل؟ وبدأت أدرك لماذا ينظر الناس إلىَّ. منذ ذلك اليوم بدأت مرحلة جديدة فى التعامل مع هذا الموضوع، حيث أصبحت بالرغم من حركتى التى لا تهدأ لصيقًا بالمسجد، وأذكر بعد موقف المرآة أننى كنت أقف فى الصلاة وأنا فى خزى من نفسى بعد هذين السؤالين اللذين خرجا من فمى وأصبحا علامة المرحلة التى أَمرُ بها، فكنت فى الصلاة أنظر إلى يدى الاثنتين وأضع اليمنى ذا الثلاثة أصابع على اليسرى ذى الإصبعين التى تطولها بالكاد وأنظر إليهما، وأظل أدعو أن يطيلهما الله وأن يهبنى ذراعين طويلين، وبعد الصلاة مباشرة أذهب للنوم بعد هذا الدعاء وهذا الرجاء مقاربًا يدى اليمنى من اليسرى علنى أستيقظ فأجد ذراعين ويدين كما عند إخوتى وبقية الناس، وكنت عندما أفتح عينى بعد هذه التجربة أتحسس يدى وكأنى سأجد الأمر قد تغير، وكأننى سأجد الخمسة أصابع والكف الكبيرة والذراع الطويلة.

وظللت على ذلك فترة ليست قصيرة من الوقت حتى قوى عود عقلى بإيمان داخل النفس أيقظته صلاتى الدائمة أمام الله وفطرة سليمة لم تغش إلى إثم أو كبيرة وأسرة تحمل عنى أعباء الحياة، فانتهيت إلى ماقاله لى أبى وانتهيت إلى يقين بأن هذا قدرك فى الحياة وأنك لست محتاجًا لأحد ولو أنك نجحت فسوف تبنى مجدًا لنفسك، وأنك كما كان يذكرك أبوك وأمك منذ ولدت وكل شىء يخصك له عند الله سبحانه سبيل وفرج ومخرج، فزادنى ذلك قربًا من المسجد وتقربًا إلى الله سبحانه وأنا فى

هذه السن. إضافة إلى أننى كنت مشاكسًا مع إخوتى وزملائى وحتى مع الناس، وكانت تلحق بسلوكى حدة لعلها كانت مما كنت أرى من نظرات الناس، فكنت عندما أصلى كأنى ألجأ إلى الله معتذرًا وتائبًا عما أفعله بكل هؤلاء كل يوم، والعجيب رغم هذه المشاكسات والمناوشات أن صاحبنا كان محلًا لحب كل هؤلاء لما يتسم به من قدرة على الرجوع إليهم والاعتذار إليهم.

وفى هذه الأثناء حدث موقف فهمته وقتها أنه عقاب من الله على السؤالين أمام المرآة، حيث كنت أذهب مع بعض الأولاد إلى الترعة، هم ينزلون للسباحة وأنا بجانب ملابسهم وأحذيتهم، وكنت أحب جدًّا الذهاب معهم، وكأن أمنية السباحة بالنسبة لى ـ التى تكاد تكون مستحيلة ـ تتحقق عندما أراهم يسبحون ضاربين بأيديهم الماء الجارى. وفى إحدى المرات أخذوا يقذفون أحذيتهم فى الترعة وكانت من البلاستيك الرخيص فى حالة مرح فشاركتهم ذلك، وأثناء رمى حذاء أحدهم حذرنى وهو فى الماء لاترم به وإلا قذفتك فى الماء، فلم أعر لتهديده سمعًا لأن هذا مستحيل أن يفعله عاقل ولأنه يعنى الموت لمثلى، ورميت الحذاء فجاء من ورائى وأنا على حافة الترعة المملوءة عن آخرها بالماء ودفعنى بكل قوته، فوجدت نفسى فى نصف الترعة ولم أر حولى إلا الماء، وظللت أطفو فوق الماء وأنزل وأنا فى صراع مع الموت غرقًا، وفى اللحظة الأخيرة جاءنى أحدهم وأمسك بى من وسط جسمى ورفعنى كى أتنفس حتى عادت لى الحياة مرة أخرى بعد أن كادت تذهب عنى ثم أخرجونى، ورأيت الكل يضرب صاحبنا هذا الذى كاد يتسبب فى موتى، وانتهى الموقف وظللت فترة حتى جفت الملابس التى كنت سأموت بها.

وأحسست أن ما حدث هو عقاب من ربى على هذين السؤالين، وظللت أستغفر الله عما بدر منى، وتعلمت وقتها ألا أضع نفسى فى مكان أحس فيه بالخطر وألا أتعامل مع أحد لا يقدر خطورة الأمر الذى يُقدم عليه، وقد وصلتنى الرسالة، هكذا فهمتها فى هذا الوقت. وكانت نجاتى من هذه الواقعة لبنة من لبنات الرضا بالقدر الذى قدره الله لى بهاتين اليدين اللتين قبلتهما راضيًا طائعًا موقنًا أنهما من الله، وما داما كذلك فأنا منتظر الخير من ربى دائمًا.. هكذا فهمت بعد عناء المرآة وأمنية النوم والسؤال إلى الله.

زملاء جدد

كانت فترة المدرسة الإعدادى فترة مهمة من فترات حياتى، حيث اتسعت دائرة الحياة، فقبل ذلك كانت القرية بمحدوديتها من حيث الناس ومن حيث المساحة ومن حيث المواقف والأحداث حتى من حيث الملابس، ففى الابتدائى كانت المريلة تيل نادية الطحينية اللون، أما الآن فالقميص والبنطلون، وفى الابتدائى كنا جميعًا من قرية واحدة أما فى الإعدادى فالمدرسة تجمع من مدينة قويسنا ومن كل القرى التى حولها، لذا اتسعت دائرة الزملاء الجدد من كل هذه البلاد واتسعت معها العلاقات.

وقد تعرفت فى البداية على مجموعة من الزملاء الذين كان لهم أثر كبير فى حياتى التالية، حيث صارت صداقات متينة أساسها الود والحب والاحترام، وقوامها السعى الدائم لخدمة بعضنا البعض كلما سنحت الفرص، وزينتها الأخلاق الطيبة التى لا تقترف جرمًا ولا تقترب من إثم

وإنما التزام وأدب ونحن فى هذه السن التى نقف فيها على أبواب الصبا والشباب.. كما عشنا فى هذه الفترة نوع من أنواع الخروج عما عرفناه فى القرية فى المدرسة الابتدائية، فمثلًا فى نهاية هذه المرحلة تجرأنا عدة مرات وركبنا القطار وذهبنا إلى مدينة بنها التى تأخذ بالقطار عشر دقائق لنشاهد السينما وننطلق قليلًا على الكورنيش، وكنت بعد هذه الفعلة أظل خائفًا من أن يُعلم أحد أبى أو أمى، وأحس لذلك أننى أخطأت، وهذه لم تحدث إلا مرات قليلة طوال هذه السنوات، وكنا نتندر بها فى مجالسنا بعد ذلك.

وكان حوش المدرسة الإعدادى مدرسة المساعى ساحة للتنافس بيننا فى كرة القدم، وكان الأستاذ «ظريف ميخائيل» مدرس التربية الرياضية ـ الذى كان مهتمًا جدًّا بحصة الألعاب ـ يشجعنا على الرياضة، وكان يتميز بالاحترام الشديد لنا جميعًا، وكنا نحبه ونحترمه ونقدره لأنه كان شديد الأدب فى التعامل معنا. وأذكر أن من أهم أصدقائنا فى هذه الفترة من الإخوة المسيحيين زميلنا «سامح راغب» الذى كانت تجمعنا به أخوة وصداقة قوية ومازالت.

وفى هذه الفترة تعرفت على أصدقاء العمر الذين كان كل منهم حالة إنسانية فريدة وجميلة ورائعة، التقت أرواحنا. منهم كان أخى وصديقى المتفق على أدبه واحترامه وذوقه الرفيع «أحمد جمال» الذى تعرفت عليه فى الأيام الأولى فى المدرسة الإعدادى، وصارت صداقة قوية إلى الآن. أحمد جمال منذ عرفناه فى مدرسة المساعى الإعدادية وهو بهذه الإنسانية الرائعة، فلم يخرج من فمه يومًا لفظ يشين ولا فعل فعلًا يحاسَب عليه دينًا ولا خلقًا، ولم يقف موقفًا طوال حياته معنا إلا مفعمًا

بالحب والود والمشاركة الوجدانية المخلصة. أحمد جمال عندما أتأخر فى التواصل معه أحس بأننى قد تخلى عنى بعض نفسى، وعندما ألقاه أو أتحدث معه أحس بأن الخير باق ما بقى أحمد وكل من يحمل قلب وروح وعقل ومشاعر أحمد جمال.

وكان ممن عرفت وتعلمت منه وما زلت، على الرغم من زمالتنا ونحن فى مقتبل العمر، هذا العبقرى الجميل الذى كنا عندما نراه يجادل أو يحاور مدرسًا ننظر إليه بتعجب شديد؛ ما هذا الذكاء الوقاد والذهن الحاضر والعقل الواعى الرصين، هذا الذى كان كل من يعرفه يوقن بأنه سيصبح فى قابل الأيام عالمًا مشهورًا، هذا الذى كان هادئًا وقورًا منذ عرفناه. لقد كان حديث مصر كلها فى شهادة الإعدادية حيث كان أول طالب يحصل على الدرجات النهائية فى جميع المواد، ولم تكن قد حدثت قبل ذلك، إنه «الأستاذ الدكتور هشام عبد الرحمن» الأستاذ فى كلية طب بنها.

كنت أذهب إليه فى بيته المطل على شارع الجيش فى قويسنا «الشارع العمومى» فأجد وجهًا لم أر أطيب منه فى حياتى، يملؤه الرضى والتقى، وجه أمه ـ رحمها الله ـ التى لايمكن أن أنسى كلماتها الرقيقة وهى تسأل عنى ببسمة راضية مرضية وتبعث بمشاعر أم ترجو الخير لكل من تقع عليه عيناها. هشام عبد الرحمن صورة نقية صافية لإنسان عرف طريقه وخطط لحياته ونجح نجاحًا مبهرًا.. صاحَبَه فى رحلته دين حى وأخلاق عالية وضمير يقظ، وفوق كل هذا إنسانية تربعت على عرش حياته.

وممن عرفت فى هذه الفترة، هذا التقى النقى الورع الذى كان سهلًا

لينًا رقيقًا شفوقًا، يغزوك بحنانه ويظللك بأدبه «حاتم عبد السميع» رحمه الله، الذى كانت عيناه خلف نظارته الشفافة تنبآن عن ذكاء نادر، فقد كان عبقريًّا فى مجال الرياضيات لدرجة أنه كان يشارك المدرسين ونحن فى هذه السن حل بعض المعضلات الرياضية. ولأنه كان من قرية بجانب قويسنا كنا نلتقى فى المدرسة وخارج المدرسة. وعندما عاد من رحلته للحصول على الدكتوراه من كندا سألته عن أحواله: فقال ذهبت للدكتوراه معى المصحف وسجادة الصلاة ورجعت بالمصحف وسجادة الصلاة والدكتوراه فى ثلاث سنوات.. كان وجهًا راضيًا قانعًا وكان سمتًا هادئًا.. نوعًا فريدًا من البشر رحمه الله.

أما قلب الفنان الجميل «خالد عبد العظيم» صاحب الحس الراقى ـ منذ عرفته ـ فقد كانمخزونًا تجاهى بالحنان والعطف، وكان لسانه يترقرق منه عصير الشهد الصافى، وقد جمعتنا أخوة وصداقة وكان فنانًا رقيقًا حيث كان يلبس حزام الأوكرديون ويعزف به فى طابور المدرسة، وفى نفس الوقت كان ضمن المتفوقين دراسيًّا. كانت روحه روح فنان وأخلاقه أخلاق فنان، وكانت فترة مرضه قاسية لكنه كان صابرًا، ذهبت إليه مرة فرأيته مبتسمًا ابتسامته الراضية الجميلة التى عرفناه بها منذ كنا تلامذة فى مدرسة المساعى الإعدادية، رحمه الله.

وبقى أن أتحدث عن زميل الدراسة وصديقى الذى بدأت معرفتنا فى هذه المرحلة، «إبراهيم عيسى» الذى كان حالة متفردة منذ عرفته، ونحن مازلنا نضع اقدامنا على أول الطريق. عرفته فى أسرته التى تحترم العلم والثقافة، فوالده الأستاذ السيد عيسى أستاذ اللغة العربية الذى كان حافظًا للقرآن، يحترمه الجميع، والذى علم أجيالًا كانت تعرف له هذا

الفضل. وكان إبراهيم منذ عرفناه شخصية متوهجة دائمًا، حدد طريقه وصَوَّبَ إليه سهمه النافذ. لقد كان صحفيًّا منذ نعومة الأظفار، فقد أصدر فى المدرسة مجلة ورقية سماها «الحقيقة» كنت أحد محرريها وكان هو رئيس تحريرها، وعندى فى مكتبتى أحد أعدادها أحتفظ به إلى الآن، وكان شديد الأدب مع الجميع، ودودًا كبيرًا فى تصرفاته وسلوكه، قارئًا بنهم منذ عرفته.

كنت أزوره مع صديقى محمد جلال بدراجته البخارية فكان يستقبلنا بكل ود، وكنا نجلس فى غرفة الصالون على يمين الداخل إلى البيت مباشرة والمطلة على الشارع والذى كان يعلق فيها صورة جمال عبد الناصر، وكانت تدور بيننا نقاشات نجهد أنفسنا معه فيها لأنه كان أكثر منا قراءةً وعمقًا وتحليلًا، وكنا نتفق معه ونختلف. وأذكر أننى استعرت منه فى هذه الفترة كتبًا كثيرة، أذكر منها كتابًا لعادل حسين عن شخصية عبد الناصر وتفردها، وكتابًا ما زال عندى إلى الآن فى مكتبتى وهو عدد من مجلة «شئون عربية» عن القدس، وروايته الأولى «فى وصف من يمكن تسميتها الحبيبة».

وكان له صداقة مع والدى رحمه الله الذى كان يحبه كثيرًا، وكذلك كان والدى مع كل زملائى، ودائمًا ما كان يسأل عنه حيث تعرف عليه فى فترة مبكرة من حياتنا. وكان إبراهيم يطمئنه علىّ دائمًا. وأذكر لما نجحت فى الثانوية العامة وكان ترتيبى الثانى بعده واخترت كلية الحقوق ـ وكان أبى يريد كلية الإعلام أو الاقتصاد ـ قال له أمامى: لو رضا يريد أيًّا من هاتين الكليتين سيكون معى ولا تخف عليه.

ثم افترقنا بعد الجامعة، حيث كنت أتابع تحقيقاته الصحفية فى روز

اليوسف منذ كان طالبًا فى كلية الإعلام، وتقابلنا معًا بعد ذلك فى لقاءات قليلة، ولقد أصبح بحق رائدًا من أكبر رواد الصحافة المكتوبة بجريدة الدستور التى أحدثت نقلة فى عالم الصحافة وقتها، ورائدًا فى فن الكتابة السياسية فى عهد مبارك وقد أحدثت مقالاته هزة فى عرش نظامه، وسوف لاينسى التاريخ مقالاته تلك، وخاصة مقاله «الآلهة لا تمرض». وكان رائدًا فى فن الرواية الأدبية فى مصر، وقد حقق المركز الثانى فى جائزة البوكر العالمية بروايته الرائعة التى تحولت إلى فيلم سينمائى بعد ذلك، رواية «مولانا».

إبراهيم عيسى، شهدت بداياته الأولى فعرفت شخصًا شديد الأدب، تربى فى بيت يحترم القيم، وكان طموحه منذ كنا صغارًا لاحد له، وها هو قد حقق ما أراد لنفسه، هذا بغض النظر عن المتفقين معه والمختلفين، لكن يبقى إبراهيم عيسى درة أبناء جيلى من مدرسة المساعى وأكثرهم نجاحًا وتألقًا.

ولا أنسى فى هذه الفترة مجموعة من زملاء المدرستين الإعدادية والثانوية، كل واحد منهم أصبح علمًا فى مجاله. منهم صديقى المهندس «محمود شحاتة» الذى كان دمث الخلق شديد الأدب مع كل الناس، وكان ضمن المتفوقين دائمًا، وأذكر أنه جاء مع إبراهيم عيسى ومعه آلة تصوير وأخذا لى بعض الصور فى بيتنا القديم ليبدع إبراهيم عيسى تحقيقًا صحفيًّا عن حياتى اشتركا به فى مسابقة كانت تجريها مجلة لبنانية فى ذلك الوقت.

وكان من زملائى فى هذه الفترة، هذا الذى تميز بطيبة القلب الشديدة وكان ممن ألجأ إليهم دون أى حرج، لأنى كنت أرتاح إليه وأعرف نفسه

الطيبة، «رفعت العوضى»، الذى كان والده مشهورًا فى قويسنا بأنه صول الشرطة الذى يهابه الجميع على الرغم من أن شدته كانت قشرة ظاهرة فقط تخفى وراءها إنسانًا شديد الطيبة. وقد أصبح رفعت اقتصاديًّا وحقوقيًّا بعد ما حصل على رسالة الدكتوراه، وله إسهامات رائعة فى هذا الشأن.

وقبل أن أغادر الحديث عن الزملاء، لا بد أن أختم بملك الفكاهة والدم الخفيف وقراءة الواقع بشكل مرح وكوميدى، صديقنا «إبراهيم صلاح» صاحب النكتة الحاضرة والبديهة السريعة والقلب الطيب والأسرة الطيبة، الذى كان يمازحنا بحكاياته بظرفه وأسلوبه الشيق الممتع فى العرض. وها هو وقد أصبح محاميًا كبيرًا ولم تغادره إلى الآن البسمة التى يطبعها بخفة دمه وحلاوة روحه، وقد راق لى وجودنا معًا لعدة سنوات متتابعة فى المسجد الحرام والمسجد النبوى.

كانت هذه المجموعة من الزملاء والأصدقاء الذين توثقت علاقتنا بعد ذلك، إضافة إلى زملاء النشأة والطفولة، وكانت تعبيرًا عن ملامح لشخصية توافقية تحمل قبولًا للناس ومن الناس، بمعنى أن ما قد يتصوره البعض عجزًا لم يؤثر إطلاقًا على إنسانية الإنسان، على روحه وطبيعته، التى لا بد أن تصنع مع غيرها علاقات إنسانية ناجحة يأخذ منه ويعطى، بعيدًا عن العقد النفسية والأمراض الاجتماعية التى قد يخلفها طمع أو تغذيها غيرة سلبية أو يدفعها كره أو حقد.

والحقيقة أن لزملائى وأصدقائى فى رحلة الحياة مكانة مهمة، حيث عشت فى قلوبهم وأمطرونى بغيث فضلهم وأحاطونى برعاية الأخوة الصادقة التى جعلت كل واحد منهم كأنه قد عَيَّنَ نفسه راضيًا لمعونتى

والاعتناء بى فى الأمور التى كنت أحتاج فيها إلى مساعدة، وخصوصًا عندما كان أحد الأشخاص يحاول أن يسىء إلىّ أو يتزيد معى فى الكلام أو يتجرأ بفضول غير مقبول، ترى هؤلاء الأخيار وقد تنمروا للدفاع عن زميلهم وصديقهم، وقد يصيبهم من أجل ذلك ضرر من قِبَل جاهل أو سفيه. لذلك كنت أبادلهم حبًّا بحب وودًا بود وكنت شديد الاحترام والتبجيل لهم، وكنت أعلن دائمًا أن الله قد جعل لى إخوة كثر، كل منهم لى معه مواقف تشهد لكل منا بمدى الحب المخلص والأخوة الحانية التى ما زالت تظهر بوضوح عندما نلتقى بعد ما فرقتنا الحياة، لكن لأننا كان يجمعنا حب وود وإخلاص فكأننا لم نفترق يوما.

تدريس ومدرسون

فى هذه الفترة، فترة تشكيل العقول وضخ المفاهيم التى يعيش عليها الإنسان فى حياته وتحقيق استقامة النفس البشرية وبث القيم، أتيحت لنا فرصة لكى نتعلم على أيدى مجموعة من الرجال المخلصين الذين أدوا دورهم وبذلوا فى سبيل نجاح مهمتهم فى تربية وتعليم جيل أصبح ممتنًا الآن بعد كل هذه السنين لما فعلوه، سواء فى المدرسة الإعدادية أو فى ردهات المدرسة الثانوية. ولعل أكثر ماكان يميز هاتين الفترتين الجدية والعمل المخلص وفهم المدرس لمهنته سواء من حيث التربية أو من حيث التعليم، وكذلك إقبال كثير من الطلبة على التعليم حيث كانت نسبة الغياب قليلة للغاية ومن يغيب عادةً يكون مجبرًا على ذلك لظروف خارجة على إرادته. هذه الصورة ناصعة البياض كان يصيبها بعض الغَبَش، بسبب خروج البعض عليها، سواء هروبًا أو محاولة للتمرد على

قواعد المنظومة، ولكن تبقى نمشًا لايشوه الصورة ولا يغير من طبيعتها الراقية..

وأذكر من المدرسين الذين كانوا علامة على الالتزام والجدية ـ والصرامة أحيانًا ـ مدرس اللغة الإنجليزية «الأستاذ عبد العزيز الباز» هذا الوجه الأوروبى الجميل ببياضه الممزوج بحمرة وشعره الناعم الذى كان يميل معظمه يمينًا ونظارته التى ينبئ سمك عدساتها عن ضعف نظره، كان يدخل علينا الفصل فى الحصة الأولى فى اليوم الدراسى، وأذكر فى أول حصة دخل علينا فيها وهو ممسكًا بعصا صغيرة ووضع على السبورة مجموعة من الأسئلة التى درسناها فى العام السابق وكانت سهلة، وبدأ فى السؤال وسار بين التلاميذ يسألهم، وكل من يجيب يقول له اجلس بسرعة ومن يتلجلج يعاجله بالعصا بسرعة عشرين عصا فى الثانية، فارتعدت، وانتهت الحصة الأولى. وظل لعدة حصص لا يسألنى، فكأننى قد اطمأننت وأحسست أنه لن يسألنى، وفى مرة أمرنى بالوقوف وسألنى، فإذا بى من الخوف انطلقت وأجبت بسرعة بل وأجبته عن كل ماكان مكتوبًا على السبورة، وكأنى كنت أدفع بإجابتى هذه الخوف الذى اعترانى من شخصيته، وظللت فيما بعد متجاوبًا معه. هذا المدرس كان يحترم جدًّا حصته ولا يجلس طوال الحصة، ويشرك تلاميذه معه ويختبرهم دائمًا بهذا النشاط العقلى والذهنى. الشىء الوحيد الذى كنت آخذه عليه هو كثرة وسرعة ضربه للتلميذ الذى لا يجيب، وكان يمكن أن يكون الضرب أقل أى أن يكون عقابًا وظيفيًا من أجل إصلاح وضع ما.

وممن أذكر من المدرسين فى هاتين المرحلتين الأستاذ «مندوه المغازى»

مدرس اللغة العربية الذى كان وسيمًا يدعم وسامته باختيار ملابس قيمة، حيث كان الجاكيت يناسب القميص والحذاء والكرافتات الشيك، فكان مثلًا لاحترام النفس فى كل شىء. وكانت له طريقة فى الشرح هادئة، ولم يكن ممن يعاقبون بالضرب ولكن عقابه كان بالغضب أو باللوم المصحوب بكلمة قاسية كالوصف بالغباء أو البرود أو غير ذلك، وكان عاشقًا للغة العربية وقد جعلنا ذلك نُقبل على اللغة العربية.

وممن عرفت فى هذه الفترة وكان مثالًا على التزام المدرس الأخلاقى والتربوى والتعليمى الأستاذ «محمد لبيب» أخو زميلى وصديقى الدكتور نبيل لبيب الذى كان آية فى الخلق والالتزام، وكان مدرسًا لمادة الرياضيات التى كنت لا أطيقها، لكنى كنت أحبه كثيرًا، وكان يبذل جهدًا كبيرًا فى الحصة، ويظل يشرح فى حصته حتى يضرب الجرس، وكان شديدًا مع بعض التلاميذ الذين لا يصلح معهم إلا الشدة، وترك فى نفسى أثرًا بأخلاقه لا يمحى.

ومدرس التربية الرياضية الذى أشرت له من قبل، الأستاذ «ظريف ميخائيل» الذى لم تكن حصة الألعاب عنده مباراة كرة ولكن كانت تدريبات ومسابقات هادفة، وكانت عنده رؤية لحصة التربية الرياضية، وكان يحظى باحترام كل تلاميذه. وقد قابلته قريبًا وقد رسم الزمان على وجهه الجميل علاماته التى لم تخف جدية وجهه ولا إخلاصه البادى من بين عينيه.

ومن هؤلاء الأعلام من المدرسين كان مدرس الفرنساوى فى المدرسة الثانوية «الأستاذ عبد الوهاب»، وكان هذا الرجل رغم قصر قامته إلا أنه كان شديد الاحترام لنفسه، وكنت أحب كثيرًا أن أنظر إليه وهو ينطق

كلمات الفرنساوى فقد كان ينطقها ببراعة، وكانت له طريقة فى شرح الفرنساوى رائعة، وكان يسمح لى بأن أمازحه على غير عادته، وكنت أذهب إلى بيته فى درس خصوصى، ويرجع إليه الفضل فى حصولى فى الفرنساوى على 28 درجة من 30، فى هذه السنة.

وفى المدرسة الثانوى التقينا بمدرس وجهه كان صارمًا شديدًا وشاربه الكث يزيد وجهه صرامة، كانت المدرسة بمن فيها تخاف منه وتحترمه، وكان يدرس اللغة الفرنسية، الأستاذ «عباس الحانون»، وكان إذا قابلنى تشرق فى وجهه شديد التجهم ابتسامة، فلما حكيت لوالدى ضحك وقال لى إنه أحد أصدقائه وهو يعرفك جيدًا.

ومن المدرسين الذين كانوا يمثلون سوءة من السوءات فى جمال الصورة، هؤلاء الذين كانوا يجبرون الأولاد على الدخول فى الدروس الخصوصية وإلا عاقبوهم فى درجات الشهور، وكان مشهورًا بذلك مدرس رياضيات كان يهين نفسه وهو كبير السن بهذا العمل، لكنه لو نظر إلى الوضع الآن حيث التعليم ليس فى المدارس ولكن فى «السناتر» كما يسمونها، لاعتبر نفسه ملاكًا بالقياس لما يفعله أحفاده الآن.

كانت المدرسة فى عهدنا مازالت تقوم بدورها ومازال التلاميذ والطلبة يعمرون المدارس، وكانت الدروس الخصوصية موجودة ولكنها لم تكن بهذا الشكل السرطانى الذى جعل الطلبة وعاءً يُملأ بالمعلومات ثم يفرغ فى الامتحانات، وبعدها يرجع فارغًا كما كان. كما أصبح المدرس مقاولًا لعملية بناء بلا قواعد ينهدم بعد أن تنقضى مهمته، ويأخذ هذا المقاول إتاوة البناء الهش الذى لايربى عقلًا ولا يبنى أمة ولا يصنع مستقبلًا. ولا أنسى موقفًا لأستاذ كبير من

أساتذتنا الكبار، الأستاذ «كمال شبل» خبير اللغة العربية الذى وافق تحت إلحاح الطلبة فى الشهرين الأخيرين من الثانوية العامة على إعطائهم درسًا خصوصيًا فى النحو والبلاغة، فحضرت معهم، فلما قابلته كان معى شديد العطف والمروءة وأيضًا معنا جميعًا، لدرجة أنه كان يخيرنى فى الحصص التى أريد أن أحضرها. ولم يكن أبدًا يتحدث فى الأجر بل كان حرصه الشديد على أن تصل الرسالة إلى تلاميذه، حتى ولو لم يحصل على أجر، فشتان بين هذا المعلم المربى وبين مقاولى الأنفار أصحاب الإعلانات مدفوعة الأجر على الحوائط وفى وسائل الإعلام.

الأدب والنصوص إعدادى وثانوى

من أبدع ما قرأت من أدب تلك الاختيارات للنصوص الأدبية فى الإعدادى والثانوى، حيث كانت اختيارات تحمل القيم التى يجب أن يلتزم بها الصبى فى هذه المرحلة، فهى تضع له الأساس القيمى والأخلاقى فى هذه المرحلة، ولاينسى الذى يختار إبداعها اللغوى وزينتها الجمالية أنها تشكل وجداننا فى هذه الفترة المبكرة من شبابنا، ومن ينظر فيها يجدها قد اشتملت على القيم التى يجب أن تُزرع وتُنمى وتُثمر فى هذه السن لصبى يبدأ حياته، وأذكر هذا النص القرآنى المبدع تربويًا وأخلاقيًا وعقديًا وكان فى أوائل التعليم الإعدادى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾.

هذا النص الذى احتوى على قيم احترام الوالدين وسعة علم الله سبحانه وتعالى والمحافظة على الصلاة والتواضع وخفض الجانب وعدم رفع الصوت.. مازلت أذكر هذا النص القرآنى بالإضافة إلى أنه مقدس فهو تربية للنفس الإنسانية عندما تكون فى أول طريق الحياة.

ومن النصوص التى اُحتفرت فى ذاكرتى ولا أنساها أبدًا، بل وأرجع لها بين الحين والآخر، القصيدة الخالدة للشاعر العراقى معروف الرصافى التى شكلت وعينا فى النظر لخلق الله فى الكون:

انظرْ لتلك الشجرة ذاتَ الغُصُون النضرة
كيف نَمَتْ من حبّه وكيف صارتْ شجرة
فانظر وقُلْ من ذا الذى يُخرجُ منها الثّمرة؟
وانظر إلى الشمس التى جَذوتها مُسْتَعِرَة
فيها ضياءٌ وبها حرارةٌ منتشِرة
من ذا الذى أوجدها فى الجوّ مثْل الشَّرَره؟

ذاك هو الله الذى أنْعمُهُ مُنهمِرة
ذو حِكمة بالِغَة وقُدرة مُقْتدِرَة.
انظرْ إلى الليل فَمَنْ أوجَدَ فيهِ قَمَرَه
وزانَهُ بأنجُم كالدُّررِ المُنْتشِرَة؟
وانظر إلى الغيْمِ فَمَنْ أنزَلَ منه مَطَرَه
فصُيّر الأرض بِهِ بعْدَ اغْبِرار خضره؟
وانظرْ إلى المرءِ وقُلْ من شقَّ فيهِ بَصَرَه
مَن ذا الذى جهّزهُ بقوّة مفتكره؟
ذاك هو الله الذى أنعُمُهُ مُنْهمِرَه

وأذكر من النصوص التى كانت تلهب حماسنا الوطنى عندما كنا نرددها، خصوصًا وكنا لم نزل نعرف عدونا ولم نكن قد أعطيناه أيدينا طواعية، هذه القصيدة التى كنا لانقولها إلا بصوت كأنه سيل هادر، وعرفنا بعد ذلك أنها كانت للشاعر كمال عبد الحليم وغنتها فايدة كامل بصوتها القوى:

دع سمائى فسمائى مُحرقهْ
دع قناتى فمياهى مُغرِقهْ
واحذر الأرض فأرضى صاعقه.
هذه أرضى أنا وأبى ضحّى هنا
وأبى قال لنا مزقوا أعداءنا.
أنا شعبٌ وفدائيٌّ وثورهْ
ودمٌ يصنع للإنسان فجْرهْ

ترتوى أرضى به من كل قطره
وستبقى مصرُ حره مصر حره.
دع سمائى فسمائى محرقه
دع قناتى فمياهى مغرقه
واحذرِ الأرض فأرضى صاعقه.
هذه أرضى أنا
وأبى ضحى هنا
وأبى قال لنا
مزقوا أعداءنا.
أنا عملاق قواه كلّ ثائرْ
فى فلسطين وفى أرض الجزائرْ
والملايو وشعوب كالبشائر
تنبت الأزهار من بين المجازر.
دع سمائى فسمائى محرقه
دع قناتى فمياهى مغرقه
واحذر الأرض فأرضى صاعقه.
هذه أرضى أنا
وأبى ضحى هنا
وأبى قال لنا
مزقوا أعداءنا.

وأذكر من النصوص الرائعة للشاعر الكبير «إيليا أبو ماضى»، وهو نص «التينة الحمقاء» الذى ساق معنًى تربويًا فى حكاية مصنوعة من كلمات ومعانى شديدة الجمال والروعة، هذه القصيدة التى جعلتنى

أبحث عن كل ما كتب هذا الشاعر الفيلسوف حيث دواوينه «تذكار الماضى» و«الخمائل» و«الجداول»، قال فى هذه القصيدة:

وتـينـةٌ غـضةُ الأفـنان بـاسقةٍ ... قـالت لأتـرابها والـصيف يحتضر
بئسَ القضاء الذى فى الأرض أوجدنى ... عـندى الجمال وغيرى عنده النظر
لأحـبسن عـلى نـفسى عوارفها ... فـلا يَـبِيْنَ لـها فـى غـيرها أثر
لـذى الجناح وذى الأظفار بى وطر ... ولـيسَ فى العيش لى فيما أرى وطر
إنـى مُـفَصِّلة ظـلى على جسدي ... فـلا يـكون بـه طـول ولا قِصر
ولـست مـثمرة إلا عـلى ثـقةٍ ... أن لـيس يـطرقنى طـير ولا بشر
عـاد الـربيع إلـى الـدنيا بموكبه ... فازَّينت واكتست بالسندس الشجر
وظـلت الـتينةُ الـحمقاءُ عـاريةً ... كـأنها وتـد فـى الأرض أو حجر
ولـم يـطق صاحب البستان رؤيتها ... فـاجتثها فـهوت فـى النار تستعر
مـن ليس يسخو بما تسخو الحياة به ... فـإنـه أحـمق بـالحرص يـنتحر

هذا ما رسخ فى أذهاننا واستقر فى يقيننا

من لم يسخو بما تسخو الحياة به ... فإنه أحـمـق بـالحـرص ينتحر

وهذا المبدع هو الذى قال فى نهاية قصيدته الخالدة:

أيهـا الـشـاكـى ومـا بـك داء ... كن جميلًا ترى الوجود جميلًا

وهذا النص الذى درسناه فى المرحلة الثانوية، وكان رغم صعوبته إلا أنه أعطى لنا صورة للعرب قبل الإسلام، وكيف كانوا قبائل متنازعة يُّهبون لأتفه الأسباب، لكنه أوضح أيضًا حكمة بعض الأعلام منهم شاعر هذه القصيدة «زهير بن أبى سلمى» الذى كانت قصيدته إحدى المعلقات وكانت من الدرر التى درسناها فى هذه الفترة المبكرة من حياتنا، وهذه بعض أبياتها التى تقطر حكمة:

يَمِينـًا لَنِعْمَ السَّـيِّدَانِ وُجِدْتُمَـا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْـرَمِ
تَدَارَكْتُـمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَـا ... تَفَـانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَـمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعًا ... بِمالٍ ومعروفٍ من القولِ نسلمِ

ثم يقول:

وَمَا الحَـرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُـمُ ... وَمَا هُـوَ عَنْهَا بِالحَـدِيثِ المُرَجَّـمِ
مَتَـى تَبْعَـثُوهَا تَبْعَـثُوهَا ذَمِيْمَـةً ... وَتَضْـرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُـوهَا فَتَضْـرَمِ
فَتَعْـرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَـا ... وَتَلْقَـحْ كِشَـافًا ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِـمِ

ثم يقول:

سَئِمْـتُ تَكَالِيْفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِـشْ ... ثَمَانِيـنَ حَـوْلًا لا أَبَا لَكَ يَسْـأَمِ
وأَعْلَـمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَـهُ ... وَلكِنَّنِـي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَـمِ
رأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِـتْهُ وَمَنْ تُخْطِىء يُعَمَّـرْ فَيَهْـرَمِ
وَمَنْ لَمْ يُصَـانِعْ فِي أُمُـورٍ كَثِيـرَةٍ ... يُضَـرَّسْ بِأَنْيَـابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِـمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْروفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِـرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّـتْمَ يُشْتَـمِ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْـلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِـهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْـنَ عَنْـهُ وَيُذْمَـمِ

وأذكر قصيدة لـ«جبران خليل جبران» الذى كان عبقرى الشعر كزميله فى المهجر إيليا أبى ماضى، وهذه القصيدة كانت شديدة العذوبة والجمال كجمال وصفه ورسمه بالكلمات، ففى نهايتها يقول:

لَستِ فى الشَّرقِ وَلا الغَربِ وَلا ... فى جنوبِ الأَرضِ أَو نَحوَ الشّمال
لَستِ فى الجَوّ وَلا تَحتَ البِحار ... لَستِ فى السَّهلِ وَلا الوَعرِ الحَرج
أَنتِ فى الأَرواحِ أَنـوارٌ وَنار ... أَنـتِ فى صَـدرى فُـؤادٌ يَختَلج

لذلك فقد قرأت أعماله الشعرية شديدة الجمال ومن أجمل ما كتب وغنت فيروز:

أعطنى الناى وغنِّ.. فالغنا سرّ الخلود
وأنين الناى يبقى.. بعد أن يفنى الوجود
هل تَخَذت الغاب مثلى.. منزلًا دون القصور
فتتبّعت السواقى.. وتسلّقت الصخور
هل تحمّمت بعطر.. وتنشّفت بنور
وشربت الفجر خمرًا.. فى كؤوس من أثير
أعطنى الناى وغنِّ.. فالغنا خير الصلاة
وأنين الناى يبقى.. بعد أن تفنى الحياة
هل جلست العصر مثلى.. بين جفنات العنب
والعناقيد تدلّت.. كثريّات الذهب
هل فرشت العشب ليلًا.. وتلحّفت الفضا
زاهدًا فى ما سيأتى.. ناسيًا ما قد مضى
أعطنى الناى وغنِّ.. فالغنا عدل القلوب
وأنين الناى يبقى.. بعد أن تفنى الذنوب
أعطنى الناى وغنِّ.. وانْسَ داءً ودواء
إنّما الناس سطور.. كُتبت لكن بماء

هذا ماتعلمناه وهذا مافاض علينا به من اختار اختيارًا عبقريًا مفيدًا

نافعًا، شَكَّل عقولنا ودلنا على مواطن جلال وجمال اللغة العربية، فانطلقنا نحن نبحث ونقرأ من هذه البحور الزاخرة والتى تعلمنا الغوص فيها من خلال تلك الأيام وداخل هذه الفصول، ومن تلك الاختيارات الرائعة من عيون تراثنا العربى عندما نختار ما ينفع زماننا وما يُرَسِّخ ما عندنا من قيم، وبخاصة مع جيل جديد يراد له أن يعيش عصره متمسكًا بجذوره دون أن يطغى هذا على ذاك، وإنما يتوافقان فى سبيل إنتاج شخصيات قوية تعيش عصرها بقيم تراثها الأصيل.

فرح الإعدادية

فترة الإعدادية فى حياتى كانت فيها أشياء إيجابية كثيرة وأشياء سلبية كانت تحتاج لتقويم، وهذه طبيعة المرحلة حيث التغيرات الأساسية فى حياة الإنسان أو مرحلة التشكيل. لقد اتضحت إلى حد كبير ملامح مستقبل يمكن أن يكون سعيدًا ويمكن أن يحقق صاحبه نجاحًا، والدراسة شاهد فى كثير منها، فمستوى التعليم بالنسبة لى كان مطمئنًا تمامًا، وكانت المواد الدراسية جميعها ماعدا الرياضيات ـ وتحديدًا الرموز أى الجبر ـ لا أطيقها، لكن الهندسة كنت أجيد التعامل معها، والمواد النظرية الأخرى كنت من المتفوقين فيها.

ومن السلبيات فى هذه المرحلة، أننى كنت أتماشى مع الكثيرين، فكل الفئات تريد أن أكون واحدًا منها وأنا لا أستطيع أن أدفع أحدًا، فالكل يُظهر لى كل الود بل وكل منهم يفعل كل ما يمكن أن يرضينى، لذلك كنت دائمًا فى علاقات تعيقنى عن المذاكرة أحيانًا كثيرة. ومن بعض هؤلاء عرفت القطار والسينما فى مدينة بنها والهروب من المدرسة الذى

حدث مرات قليلة جدًّا ولكنه كان مفيدا! لأنه رسخ عندى أن هذا خطأ لأنك تخاف أن يعلم به والدك وأنه لو عرف فسوف تعاقب ذلك إضافة إلى الإسراف فى اللعب الذى كان يجعل الواحد منا يأتى قى نهاية اليوم وقد خارت قواه فيسلم رأسه للوسادة نائمًا.

ولكن رغم هذه السلبيات حافظت على مكانى بين المتفوقين، فقد حصلت فى امتحان الشهادة الإعدادية على 85٪ وكان مجموعًا كبيرًا جدًّا فى هذه الأيام، لذلك كنت على مستوى القرية ضمن الأوائل، حيث كانت 80٪ فى هذا الوقت عزيزة المنال، ومن يحصل عليها يكون من المتفوقين. وأُقيم فرح فى البيت وقتها من المهنئين، وكان الوالد والوالدة فى منتهى السعادة حيث النبتة التى زُرعت ها هى قد شقت الأرض وأصبح لها جذع وها هى فروعها تتشكل، وكانت القرية كلها كلما مررت بمكان كان الناس يستقبلونى بالوجوه المستبشرة التى تمطرنى بكلمات التهنئة والمجاملات الرقيقة. ولأول مرة يأتى صحفى من جريدة الأخبار ـ كان مراسل الأخبار فى محافظة المنوفية ـ وأجرى معى ومع الوالد تحقيقًا صحفيًّا نُشر بعد عدة أيام أصبحت فيه النجم، وجاء ذلك بعد أيام من نشر تحقيق عن صديقى هشام عبد الرحمن الذى كان ـ ولأول مرة ـ يحصل طالب على الدرجات النهائية فى جميع المواد، وأصبحت أنا وهو حديث مدينة قويسنا بقراها ومن حولها بل فى مصر كلها.

وقرر الحاج محمود أبو النصر وكان من أعيان مدينة قويسنا ومن رجال الصناعة أن يكرم أوائل الإعدادية والثانوية فى هذا العام، وأرسل لى ضمن هؤلاء المكرمين على الرغم من عدم وجود ترتيب

لى ضمن الأوائل، وذهبت فوجدت الأوائل من زملائى منهم هشام عبد الرحمن صاحب السبق الأول 260 درجة من 260 وإبراهيم عيسى وحاتم عبد السميع وغيرهم، فأحاطونى كعادتهم بعطفهم وأدبهم، ولا أنسى عند توزيع الجوائز أنهم نادوا على الأوائل واحدًا واحدًا ثم قال مذيع الحفل: وجائزة خاصة للطالب رضا عبد السلام، فوجدت القاعة وكانت مستطيلة ـ حيث كانت مدخل فيلا كبيرة ـ وقد ضجت بالتصفيق بما فيهم زملائى الكرام الذين نسوا تكريمهم وكأنهم جاءوا لتكريمى. ولا أنسى عندما تقدم إبراهيم عيسى لإلقاء كلمة المكرمين إذا به يبهر كل الحاضرين بطلاقة لسانه وبلاغة بيانه وثقته البادية فى قامته حين تكلم، وظل والدى ـ رحمه الله ـ يذكر هذه الخطبة التى كانت تنبئ وقتها عن ميلاد لمن يملك مفاتيح اللغة ويقف على بلاغة الكلمات ويوظف أفكاره لما يريد أن ينقله للناس، ولعل الأيام والسنون شهدت على ذلك.

ملحق رياضيات ودرس لاينسى

كعادة الإنسان بعد النجاحات الكبيرة، قد يصيبه بعض الوهن أو تعتريه حالة من الكسل أو يخلد إلى الدعة والراحة وما يستتبع ذلك من فتور قد يصل به إلى حافة الفشل، وهذا ما حدث لى، فبعد هذا المجد الذى تحقق فى السنة النهائية فى الإعدادية وهذا الإطراء والثناء الذى علقه الناس فى عنقى عقدًا جميلًا والصور والتحقيقات الصحفية والشهرة الواسعة التى كانت تسبقنى فى كل مكان أذهب إليه كان يجب أن أحافظ عليه، خصوصًا وأنا مقبل على مرحلة ما قبل الجامعة فيجب أن أكون

حاضر الذهن محافظًا على الأقل على الصورة الجميلة من الإعدادية. وفعلًا بدأت المرحلة الثانوية وكلى نشاط، وقد حددت طريقى من أول يوم أننى سأدخل القسم الأدبى، لأن مواده كاللغة العربية والتاريخ والجغرافيا مواد أحبها وأنا متفوق فيها، فعقدت العزم واتفقت مع والدى على ذلك، أما الرياضيات التى لا أطيقها فبقى علىَّ سنة مطلوب أن أنجح فيها فقط وتذهب عنى بلا رجعة، حتى أُخلى نفسى تمامًا لما أحب من مواد القسم الأدبى.

وظللت طوال العام أُهمل فى الرياضيات على أساس أننى لا أحتاج فيها إلا أن أحصل على درجة النجاح، وظللت على هذا الوضع إلى أن جاء موعد الامتحانات، ودخلت امتحان الرياضيات لأضع فى الورقة ما يكفل درجة النجاح فقط، وجاءتنى ورقة الأسئلة فى الجبر فوجدت نفسى فى أول ربع ساعة كأنى لا أعرف شيئًا، فتمالكت نفسى وحاولت الحل مرة بعد مرة وظننت أننى سأفلت من هذه النكبة بدرجة النجاح، ولما خرجت وجدتنى وقد أخطأت فى كثير مما كتبت، بل إننى لم أعرف ماذا كتبت لأننى فى الحقيقة خدعت نفسى فلم أعرف شيئًا عن هذه المادة إلا القليل الذى ظننت أنه سيحقق لى النجاح. وفى أقسام الرياضيات الأخرى كالهندسة وغيرها حدث ما حدث مع الجبر، وظللت طوال انتظارى للنتيجة أمنى نفسى بأننى قد أنجح وأنها كما كنت أظن آخر سنة لى مع هذه المادة، وخلال هذه الأيام انطفأت نفسى ولم يدر بخلد أحد من أهل بيتى أبى وأمى وإخوتى أننى مهموم للنتيجة لأنهم قد رأوا بأعينهم ماذا حدث من تكريم وشهرة فى العام السابق، لذا فلم يكن أحد مهتمًا لأن هذا رضا المتفوق فى الإعدادية فطبيعى أن يمر بسهولة من السنتين

الأولى والثانية الثانوية ثم يتفوق فى السنة النهائية كما فعل فى الإعدادية، هذا هو السير الطبيعى للأمور.

وجاء يوم إعلان النتيجة، ولأننى كنت مرتعدًا وخائفًا ومنتظرًا لشىء ما سيحدث فقد ذهبت وحدى، ولكن كنت أقول بينى وبين نفسى لَعَلِّى أَمُر وعل المصحح يرأف بى، ولكن كان عندى شعور بشىء ما كأنه كارثة ستحل فوق رأسى، فذهبت إلى المدرسة ووقفت بجوار حائطها فمر علىَّ مدرس الجغرافيا الأستاذ سعيد الفرماوى الذى كان يحبنى كثيرًا لأننى كنت متفوقًا جدًّا فى مادته، فلما رآنى نظر إلىَّ وقال: ماذا تفعل، مثلك لايأتى ليرى النتيجة، نتيجتك معروفة يا رضا.

هذه الكلمات زادتنى قلقًا، ماذا لو خذلتنى الرياضيات وماذا لو حملتها فوق ظهرى للدور الثانى؟ وبدأ بعض زملائى يقفون بجانبى وأنا أحاول أن أبحث لنفسى عن مكان بعيدًا عنهم لأننى أحس بما هو قادم. وماهى إلا لحظات حتى فتح الشباك على يمين بوابة المدرسة الثانوية وظهر عم شوقى بجسمه الممتلئ ووجهه المكتنز وشاربه العريض الكث وبدأنا نتزاحم على الباب وكل واحد منا ينادى عليه بالاسم: يا عم شوقى، ويذكر اسمه، فبدأت أسمع كلمات من الرجل مثل ناجح ملحق عربى، ملحق كذا ملحق كذا، حتى وجدت لنفسى مكانًا قريبًا منه ثم قلت له رضا عبد السلام، فنظر الرجل فى الورقة التى أمامه وظل لحظات راحت نفسى فيها من الخوف حتى ملأنى الرعب وقت أن قال الرجل ـ وكأنه يُجَوِّدها ـ: «ملحق رياضيات»، فنظرت إليه ورجوته أن ينظر ثانية فأعادها بنفس الشكل وبذات الوصف وشاربه يتحرك مع الكلمتين وكأنه يشهد على تقصيرى ويسخر منى فى هذه اللحظة وأنا فى هذه السن.

أحسست أننى قد أجرمت فى حق نفسى ولم أستطع أن أقف على قدمى فانتحيت جانبًا حتى أسلمت ظهرى لحائط المدرسة، وأحسست أن روحى تُسلب منى ودارت بخلدى أسئلة اللحظة: ماذا أقول لأبى؟ وكيف أواجه الناس؟ ثم كيف أوقعت نفسى فى هذه الحفرة؟ وكيف أخرج منها؟ فتحاملت على نفسى حتى وقفت وذهبت مباشرة إلى المسجد المجاور للمدرسة لأننى لم أجد أمامى إلا اللجوء لله «سبحانه وتعالى» فى هذه اللحظة الحرجة، وكأننى أريد أن أعبأ نفسى بقوة لما هو قادم، فتوضأت وصليت ركعتين ودعوت الله أن يجعل من هذا الشر خيرًا لى وأن يقبل توبتى من هذا الجرم الذى أجرمته فى حق نفسى.

وذهبت إلى البيت فما أن وصلت حتى عاجلتنى أمى ـ رحمها الله ـ بالسؤال عن النتيجة بغير اكتراث كبير، لأنها متأكدة وموقنة بالنجاح ولكن عندما رأت انطفاء ضياء وجهى وعبوس الفشل البادى على هيئتى سألت: ماذا حدث؟ فقلت لها بعد إلحاح: ملحق رياضيات، فضربت كفها على صدرها ألمًا وتعجبًا وأبدت تبرمًا وانزعاجًا شديدين وظلت رحمها الله تردد: «ازاى بعد اللى عملته فى إعدادية» وها تقول أيه لأبوك؟ قالتها أمى وهى مشفقة علىَّ. وفى هذه اللحظة وكنت وقتها أسند جسمى على باب الغرفة دخل أبى الذى ذهب بعدى ليتعرف على النتيجة التى كان لا يتصور لحظة أن تكون سوى النجاح ليكتمل موقف المأساة، ونظر إلىَّ بعينيه وكأنما علق فيهما سهام الانتقام ووجهه ليس وجهه الذى أعرفه، واقترب منى حتى ظننت أنه سيفتك بى، ولكن بعينيه اللذين غرسهما فى وجهى ووجهه يطلق شرار الغضب ثم نطق لسانه وقال: «إزاى عملت فى نفسك كده» «ملحق بعد ما الناس كلها اتكلمت عنك»

«إيه اللى حصل» وظل يردد: «إيه اللى حصل؟» عدة مرات. ثم انتهى هذا الموقف عندما أمر أمى أن تأخذنى بعيدًا عنه، وكان هذا الموقف من أشد ما لقيت فى صباى، حيث هذا الخزى الذى صنعته برعونة لم أتحسب لها ورؤية غير واعية وإهمال متعمد، ولكن أبى كعادته معى جلس بعد فترة معى لكى يرى كيف نتجاوز المأساة؟ وأين الخلل؟ فسردت له ماكان منى وكيف أننى تركت الرياضيات دون أدنى اهتمام، فقال: كلامك هذا يؤيده أن درجات المواد الأخرى كلها مرتفعة جدًّا، لكن السؤال لماذا أهملت مادة لاتحبها على الرغم من أنها قد تكون نكبة كما حدث؟ وسريعًا كان الاتفاق مع مدرس للرياضيات وإلغاء للإجازة حتى امتحان الدور الثانى، وعقاب يتمثل فى عدم لعب الكرة وعدم الخروج من البيت وأشياء أخرى كانت محل خرق طوال المدة بالتحايل عليها عن طريق الوالدة والإخوة بتسريب صاحبنا من وراء الأب. وظللت طوال هذه المدة وأنا أحس بمدى الذنب الذى اقترفته فى حق نفسى.

وفى هذه الفترة توثقت علاقتى بأطيب من قابلت فى حياتى، هذا القلب الذى يمتلئ عطفًا وحنانًا، والنفس التقية النقية والروح التى تأتلف مع كل من يقربها، أخى وصديقى «إبراهيم فريد» الذى تتفجر نفسه مرحًا وتخرج منه القفشات عفوًا، فتفعل فعل السحر فيمن يراه أو يتعامل معه، وكان معى طوال هذه المدة حيث كنا نذهب معًا لدرس الرياضيات. واقتربت من حياته التى نشأ فيها يتيمًا حيث ماتت أمه وهو فى المهد وتزوج أبوه من سيدة كان لا يتعامل معها ولايحبها، ولكن أخته الكبيرة حلت محل أمه حتى وصل إلى فترة الصبا والشباب وهو يعلق دين أخته فى عنقه اعترافًا بالجميل، وها هو يأخذنى بدراجته إلى مدينة

قويسنا لنأخذ الدرس، وأرى منه كل ما يراه أخ من أخيه. لقد كان الشيء الوحيد الجميل فى هذه الفترة العصيبة هو إبراهيم فريد وعلاقتى التى توثقت معه إلى الآن، وما قيمة الحياة إذا لم نقف فيها تحية لهذه القلوب الطيبة...

نجحت فى مادة الرياضيات فى امتحان الدور الثانى بسهولة، لكن ترك ذلك عندى تحديًا طوال حياتى الدراسية للمواد التى كنت لا أحبها، فقد وعيت الدرس تمامًا، فكنت أتحدى المواد التى لا أستطيع هضمها، حدث ذلك فى بعض المواد التى صادفتها بعد فى رحلة الدراسة. فمثلًا كانت هناك فى كلية الحقوق مادة تُدَرَّس اسمها التشريع الضريبى، كانت عبارة عن مواد وأرقام وشيء غير قابل للفهم، كنت على الرغم من كرهى للحفظ أحفظها كما هى بالشكل الذى عليه فى الكتاب، وكذلك كنت أحفظ المصطلحات الفرنسية والإنجليزية خوفًا مما حصل فى ملحق الرياضيات الذى علمنى أن أعمل حسابًا لكل شيء، وبخاصة الذى يستعصى علىَّ فهمه، وصار عَلَىَّ أن أجد له وسيلة ولا أترك نفسى أبدًا نهبا للإهمال والرعونة. وقد أثمر الدرس ثمارًا بدت ليس فقط فى كل مراحل تعليمى بعد ذلك وإنما أيضًا فى مواقف الحياة التى تحتاج حيطة وحذرًا وانتباهًا، حتى لا تتكرر مأساة ملحق الرياضيات مرة أخرى.

ثانى قويسنا

كان القسم الأدبى وما يشتمل عليه من مواد أدبية يناسبنى كثيرًا، حيث اللغة العربية واللغتان الفرنسية التى برعت فيها فى أول سنة والإنجليزية التى كان مستواى فيها فوق المتوسط، وأيضًا التاريخ والجغرافيا المادتان

اللتان أعشقهما وخاصة التاريخ، لذلك كنت كمن رُفع عن ظهره أثقال ما يكره وهى مادة الرياضيات، وبالتالى فليس له حجة فى أن يتقدم للمراكز الأولى. لذا فقد أفرغت ما عندى من جهد ووضعت أمامى هدف التفوق وأن أثبت لنفسى أننى قادر على ذلك بما عندى من قدرات خَفَتَ نوُرها بفعل الإهمال والرعونة، وشعرت أنه يجب أن أعود لساحة التفوق مرة أخرى، وهذا ما حدث فى السنة الثانية والثالثة حيث الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة فى المناهج، وحيث الدروس الخصوصية التى كانت قد بدأت فى الانتشار فى هذا الوقت، وحيث مكانى فى الغرفة التى كانت تعيش فيها ستى آمنة منذ عشرين عامًا وقد جُهزت لى بعيدًا عن ضخب البيت ولا أنزل منها إلا للطعام أو الصلاة.

ظللت هكذا خلال السنة الثانية والسنة الثالثة الثانوية. وأذكر من الفعاليات المفيدة التى لم يعد لها وجود الآن مسابقات أوائل الطلبة، حيث يُختار من كل مدرسة أربعة أو خمسة طلاب يتبارون فى المواد التى يدرسونها وفى المعلومات العامة أمام لجنة تُختار خصيصًا لذلك، وتُعقد المسابقات على مستوى المركز أولًا بين المدارس ثم تصفى المدارس الناجحة على مستوى المحافظة ثم على مستوى الجمهورية. وعندما بدأ الاختيار من القسم الأدبى وُضع اسم إبراهيم عيسى أولًا وبدأ البحث فيمن يكون مع إبراهيم عيسى فكان الاختيار بين ثلاثة، زميل كان مجتهدًا جدًّا اسمه عصام ولا أذكر اسم والده الآن والثانى زميلى وصديقى المرحوم هانى عبد العزيز الذى كان شعلة من الذكاء وسرعة البديهة وأنا، وظل التمحيص إلى أن وقع الاختيار على هانى عبد العزيز لأنه الأصلح لهذه المهمة حيث الأمر يحتاج إلى سرعة البديهة والإجابات السريعة واليقظة

التى يتمتع بها هانى. وحتى يجبروا بخاطر من لم يُختار أخذونا معه فى التصفيات التى أجريت بعد ذلك وكانت فى مدرسة عبد المنعم رياض فى شبين الكوم، وكانت مباراة رائعة حيث يجلس الطلبة أمام بعضهم تتوسطهم لجنة الامتحان التى تتكون من عدة مدرسين ومفتشين يلقون الأسئلة ليتولى الطلبة الإجابة عنها وينطلق التصفيق وتنطلق الصيحات، ثم ينتهى الأمر بإعلان النتائج، ولا أذكر نتيجة هذه المسابقة لكن الذى أذكره جيدًا هذا التنافس المشجع والمحفز وهذا الاهتمام بهذه الأنشطة التى تزيد هؤلاء التلاميذ ثقة فى أنفسهم، والتى أيضًا ترفه عن المتفوقين وتجعل منهم أمثلة تُحتذى لمن يأتى بعدهم.

واقترب موعد الامتحانات وقررت إدارة المدرسة إقامة لجنة خاصة لى، واختارت طالبًا من السنة التى تسبقنا على أن يكون من القسم العلمى، ووقع الاختيار على هذا الملاك البشرى ذى الأخلاق العالية والذوق الرفيع والتربية العالية، الذى أصبح بعد ذلك طبيبًا هو الصديق الدكتور هشام سليمان، وكان له أم طيبة كريمة وهبت نفسها له ولأخيه بعد وفاة والدهما، و جلس بجانبى فى اللجنة أُملى عليه ويكتب طوال الامتحانات وكان خطه فى الكتابة جميلًا، وانتهت الامتحانات وقد أيقنت أننى سأحصل على مجموع مرتفع لكن لم أكن أتوقع ما حدث. وكان من عادة والدى أنه كان يراجع معى كل مادة وأقول له سأحصل فيها على مجموع كذا ويبدأ فى الجمع، حتى يكون هناك توقع بالنتيجة، ولما فعلنا ذلك كان المجموع المتوقع من 78٪ إلى 80٪، وسلمنا أمرنا لله، وشتان بين الرعب والخوف الذى ملأ قلبى فى السنة الأولى من الإهمال فى الرياضيات وماكان فيها من نكبة وبين الثقة واليقين الذى أحاط نفسى

بعد امتحانات السنة الثالثة وانتظارى لخبر سعيد ينشر السعادة ويوطن للفرح، وها نحن ننتظر ومعى رفيقى فى كل إجازة مدرسية ابن خالتى وفاء أحمد الذى كان ينام معى بل ويشاركنى فى كل شىء طوال الإجازة التى يغادر فيها كفر الدوار حيث تعيش خالتى وأسرتها ويأتى للعيش معنا، أمى أمه التى كانت تعتبره واحدًا منا وهو كان يحبها جدًّا.

وفى الليلة التى كنت أنتظر فيها النتيجة ظللت أصلى وأدعو الله وأتمنى أن يكون يومًا سعيدًا، خصوصًا أن أمى كانت مريضة، ولعل هذا الخبر السعيد يشفى ما عندها من ألم. وبعد صلاة الفجر تجهزنا أنا وأحمد الذى ملأه الأمل فى أن يكون اليوم سعيدًا، ومع تباشير الصباح تحركت أنا وهو إلى المدرسة فى مدينة قويسنا وعندما أصبحنا علىَّ أبواب المدينة جاء من بعيد زميلان كان أحدهما محمد جلال، فنادى على بأعلى صوته: «يارضا يارضا طلعت الثانى على المدرسة» فلم أصدق نفسى وسألته كيف؟ فقال لى: الأستاذ حمزة أعلن النتيجة فى ميكروفون المدرسة وجاء عند اسم إبراهيم عيسى وأعلن أنه الأول على المدرسة بمجموع 86٪ ولم يعلق، وجاء عند اسمك وأعلن أن رضا عبد السلام 83٪ والثانى على المدرسة، وظل يردد ألف مبروك يارضا عدة مرات. وكان الأستاذ حمزة هو الأخصائى الاجتماعى فى المدرسة وكان يحبنى كثيرًا وكان مهتمًا جدًّا بالكرة، وكان يستمتع لمشاهدتى وأنا أفعل بالكرة الأعاجيب، لذا فقد عبر عند إعلان النتيجة عن كل هذا، فهممت أن أذهب إلى المدرسة فأقسم محمد جلال أن يأخذنى معه على الدراجة. وأما أحمد بن خالتى فقد ظل يجرى بأقصى سرعته أثناء عودتنا حتى سبق الدراجة ليكون أول المهنئين لأبى وأمى التى كانت فى مرضها الأخير، ووصلت إلى البيت

ودخلت فوجدت أمى تجلس على السرير وأبى يجلس على الأرض وفى اللحظة التى دخلت فيها الغرفة نظر أبى إلى أمى فوجدها تبكى، فاقتربت منها فأخذتنى فى حضنها وهى تقول: «ألف مبروك» وتمسح بيدها على ظهرى، وجاء أبى ليعتنقنى عناقًا طويلًا ويمطرنى بكلمات التشجيع، ويذكرنى بالفرق بين أن يقوم الإنسان بما عليه وبين أن يهمل وشتان بين هذا وذاك.

وانطلقت الأفراح والتكريمات من كل الجهات، فرحًا بهذا النجاح المبهر، الذى كنت أتوقع أن يكون هناك تفوق لكن أن أكون الثانى على المدرسة والثانى على مركز قويسنا والعاشر على المحافظة ـ وهذا ما عرفته بعد ذلك ـ فهذا لم أكن أتوقعه ولم يدر فى خيالى، لكنه الإنسان عندما يعمل ويخلص فى عمله، وعندما يحدد لنفسه هدفًا يناسب ما عنده من إمكانات وقدرات، يدفعه طموحه لأن يصل إلى ما يريد من إثبات ذاته، وهذا ما حدث وكان له أصداؤه فى كل من له صلة بالمدرسة حيث تعلمت والقرية حيث نشأت والأسرة حيث تربيت وكبرت.

شوفوا مين اللى جاى؟! موت المجاهِدة

كانت نتيجة الثانوية ونجاحى بهذا التفوق هو الخبر الأخير بالنسبة لأمى فى وداعها للحياة التى استمرت أربعين عامًا، وكانت أيضًا إعلانًا لرضاها الذى ربما تأثر من حدة الطفل على أمه فى بعض الأحيان، فكان حضنها الأخير ومرور يمناها على ظهرى علامة على الرضا، وكأن الله سبحانه أراد أن تذهب إليه وقد اطمأنت على ثالث أولادها بعد دخول حسن وياسر الجامعة قبله بسنة، ورضا كان حالة خاصة بتاريخه معها

وحدبها عليه واهتمامها به ورعايتها الفائقة له. وبعد بضعة ساعات ذهبت أمى فى غيبوبة ونُقلت إلى المستشفى فى شبين الكوم، وتحول الفرح إلى قاعة حزن وقضينا ليلتنا ننتظر. وفى اليوم التالى ذهب أخى حسن إلى شبين الكوم ثم عاد وقد ملأ وجهه حزن تعبر عنه عيناه اللتان امتلأتا بالدموع، وقال لنا ـ وكان ضمن الجالسين خالاتى وبعض الجيران وإخوتى ـ: «ادعوا لأمى» وانفجر فى البكاء، فعرفنا أنها النهاية، فسألته: أين هى؟ قال لى فى القصر، أى فى مستشفى القصر فى شبين الكوم، فغافلتهم جميعًا وكنت ألبس بنطلون خروج وقميص فخرجت من البيت إلى مدينة قويسنا وسألت على موقف شبين الكوم وذهبت وركبت السيارة حتى وصلت إلى المستشفى بعد أن كنت أسأل عند كل خطوة أخطوها، فسألت فى مكتب الاستعلامات فى المستشفى فأخبرونى أنها بالدور الثالث، فصعدت، ولما كنت فى بداية طرقة طويلة رأيت فى نهايتها أبى يقف وعلى يمينه خالى مرسى وعلى يساره أخى ياسر، وعندما رآنى سمعته بصوت وصلنى من بعيد:

«شوفوا مين اللى جاى؟!»

وهرول ثلاثتهم إلىَّ حتى أخذنى أبى فى حضنه وضمنى إلى صدره وانفجر فى البكاء، وظل على ذلك الحال فترة حاول فيها خالى وأخى أن يفكا يداه فلم يفلحا إلا بعد عدة دقائق، فأحسست أن الأمر قد انتهى، وسمعت خالى يقول: لايدخل عندها لايحتمل، ولكن أصر أبى على دخولى فدخلت، فوقعت عينى على أمى فى سرير بجانب الباب مباشرة وعلى وجهها قطعة قماش شفافة يظهر منها وجه أمى وهو يصارع الموت، فهى تحاول أن تلتقط النفس بصعوبة وفى غيبوبة كاملة، فأصابنى الهلع

وهستيريا وصراخ يخرج من أعماقى من هذا المشهد، فحملونى إلى شرفة مطلة على حديقة المستشفى، فوجدتنى أقطع بأسنانى وسادة كانت على سور هذه الشرفة، وأحسست أننى سيغمى علىَّ فأخذنى أبى على صدره وهو يغالب دموعه، وذكرنى بالله وأمرنى أن أذكر الله فهدأت قليلًا، وبعد عدة دقائق تمالكت فيها نفسى وعاد إلىَّ فيها شىء من الرشد واستغفرت فيها الله، ثم دخلت على أمى وقبلت رأسها وأنا أبكى واقتربت كثيرًا من أذنها وأخذت أردد الشهادتين أكثر من خمس دقائق، وظللت معهم حتى انتقلت إلى مستشفى الحميات وباتت معها زوجة خالى، التى كانت أمى تحبها وتقدرها لأن لسانها كان لا ينطق إلا الكلام الطيب، ولعل القدر أراد أن تكون آخر وجه رأته هذه المجاهدة الطيبة أمى.

فى تلك الليلة، صعدت روح أمى الغالية إلى خالقها فى تلك الليلة، هذه المجاهدة التى أعطت كل ماعندها لكل من حولها، هذه التى عاشت أربعين عامًا قامت فيها على إخوتها بعد موت أمها، فكانت لهم الأم التى يلجأون إليها صغارًا ويلجأون إليها كبارًا بعدما تزوجوا وأصبحت لهم بيوت وأسر، وهذه المجاهدة التى تزوجت قبل العشرين من عمرها فكانت زوجة وفية مخلصة دؤوبة، أنجبت عشرة من الأولاد والبنات بقى منهم خمسة أولاد وبنت واحدة، عاصرت الشدة والتعب قبل الكهرباء باللمبة الجاز نمرة خمسة ونمرة عشرة وقبل دخول المياه إلى البيوت حيث يجب أن تملأ زير الماء للشرب يوميًا، فتحمل «الطشت» أو «الباستلة» فوق رأسها بالماء الذى تأتى به من بعد حوالى كيلو متر تقريبًا، ثم تملأ الأوعية بالماء اللازم للتنظيف والغسيل، هذا كل يوم لأسرة عدد أفرادها عشرة أفراد، ومطلوب منها وحدها إطعام كل هذه الأفواه والإشراف على دروس الأولاد فى عدم وجود الأب.

ومع كل هذا الجهد كانت أمى حبيبة الجميع، الطيبة النقية التى قضيت معها ثمانية عشر عامًا لم أسمع منها لفظًا جارحًا لأحد، ولم أرها فى موقف لايشرفها، وإنما وجدت إجلالًا واحترامًا من كل الناس لها. وقد ظلت تنتظر أن يمن الله عليها ببنت تعيش فقد مات لها بنتان قبل ذلك، آمنة وأسماء، فلما رزقها الله برقية عاشت معها سنوات قليلة ثم رحلت الأم وبقيت البنت التى كانت ترجوها، وهكذا أقدار الله. وكان يأتى عليها الليل فتسقط من التعب ولعل كل هذا الذى لايطيقه بشر هو الذى أتعب مخها المسكين الذى لم يعد يحتمل، فعبر عن هذا بنزيف لم يستطع الأطباء وقفه. وما آلمنى ومازال يؤلمنى أن هذه السيدة العظيمة المجاهدة الطيبة لم تجن شيئًا مما زرعت فى أبنائها، فالكبير لم يكن قد أنهى المرحلة الجامعية، وكنت ـ بل كان كل إخوتى ـ يريدون أن ترى أمنا النبتة التى زرعتها وروتها ورعتها كيف ربت وكيف أثمرت، لذلك فكل أحفادها من أولادنا يعرفونها جيدًا مما نقصه عليهم من صاحبة الفضل علينا وعليهم، وها قد ذهبت إلى ربها وقد أدت ما عليها وهى راضية مرضية، يقال لها بإذن الله «ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى».

أم جديدة

كانت أيامنا التى تلت وفاة أمى أيامًا صعبة، ذقنا فيها جميعًا طعم اليتم، سواء من الناحية النفسية حيث كان هذا القلب الكبير يفتح لنا حجراته لكى نرتاح فيها جميعًا، ومن الناحية المادية حيث كانت ـ رحمها الله ـ هى التى تفعل كل شىء لكل من يعيش فى البيت، وكانت هى التى تدير كل مايتعلق بنا من مصالح فى عدم وجود الأب. فمن الذى سيطعم

ستة أفراد؟ ومن الذى يقوم بالبيت وبحاجات الأولاد؟ كان أخى ياسر قريبًا جدًّا من أمى وكان يساعدها فى إدارة شئون البيت لذا فقد ساعد فى هذا الأمر، وبدأ الأب يخطط لحياتنا القادمة إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولًا، وكان أخى ياسر يساعد كل إخوتى ويديرهم وينظم العمل، فلكل واحد منهم دوره حتى تسير القافلة ولا تتوقف. وتبين لنا بعد عدة أيام مدى الأثقال والأحمال التى كانت تحملها هذه السيدة المجاهدة العظيمة، وأذكر فى هذه الأوقات بعد رحيل أمى أنى بدأت أعتمد على قضاء حاجاتى على إخوتى «أحمد» الذى يصغرنى بحوالى عشر سنين و«رقية» التى كانت فى أولى سنوات الدراسة الابتدائية.

لقد كان موت أمى بالنسبة لى هزة عنيفة، فهى التى كنت أعتمد عليها فى كل شئونى ولا أرضى بها بديلًا، حتى إنها كانت تطلب منى أن يتولى أحد إخوتى قضاء ما أريد من الحاجات القليلة التى أحتاجها فكنت لا أرضى بديلًا للمسة يدها الحانية التى تفيض عطفًا ولا طريقتها التى لم تكن تُظهر ـ رغم تعبها الشديد ـ أى لون من الضجر.. وما جعلنى أعانى بعد موتها أنها قد عودتنى على أن أكون فى أبهى صورة من حيث الهندام وكانت تخاف أن أظهر بصورة أبدو فيها محتاجًا لأحد أو أن يظهر من ملابسى ما يدعو للشفقة كأن تكون متسخة أو غير مهندمة، وكان يؤصل لهذا فى نفسى أبى ـ رحمه الله ـ حيث من المحرمات عنده أن أخرج بشكل غير لائق أو بهندام غير منظم، لذلك فقد عانيت كثيرًا بعد موت أمى وبدأت أرسم خريطة أخرى بطرق مختلفة أقضى بها حاجاتى الأساسية.

وكأن القدر قد استودع وديعة لهذا الظرف الذى حل بنا من موت أمى، حيث كانت أختها «فاطمة» لم تتزوج بعد وبلغت الثلاثين من

عمرها، ومن تصاريف القدر أنها كانت أكثر أخوات أمى قربًا منها ومنا نحن أولادها، فقد كانت تعلم كل شىء عن البيت وعن ظروفه بحكم قرابتها اللصيقة بأمى بالإضافة إلى علاقتها بنا، فقد كانت هديتها حاضرة عند بداية كل سنة دراسية وعند كل عيد ميلاد لكل منا، فمرة قميص فاخر ومرة أدوات الدراسة وأخرى مبلغًا من المال. فلما رحلت أختها كان الوضع الطبيعى أن تحل محل أمى وأبدت استعدها أن تقوم بهذه المهمة مع أولاد أختها الذين يحتاجون إليها. وظهرت الاعتراضات من بعض الأشخاص الذين كان ينبغى عليهم الوقوف مع هؤلاء الذين فقدوا السند الحقيقى فى الحياة فى منتصف الطريق، فأولهم فى السنة الثانية فى الجامعة وآخرهم بنت فى بداية المرحلة الابتدائية، فلمَ الاعتراض والأمر بهذا الشكل؟!

ولكن لإصرارها أن تحل محل أختها لتكمل مسيرتها مع أولادها جاءت لنا أمًا جديدة رغم مواقف البعض التى مازالت غامضة المعنى والهدف. وجاءت خالتى فاطمة لترفع عنا عناء الشهور العجاف التى قضيناها بعد موت أمى وحملت عنا كل ما كانت تحمله أمى وأخلصت إخلاصًا شديدًا وبذلت معنا جهدًا مضنيًا فلما علم الله منها الصدق فى معاملتنا كافأها بأن أنجبت من أبى ولدين «مصطفى ومحمود» لا يعرف أى واحد يعيش فى قريتنا أنهما إخوة لنا من الأب فقط وإنما الكل يعرف أنهما إخواتنا الأشقاء، لأننا جميعًا نريد أن نرد لهذه الأم التى حلت محل أمنا الجميل فى ولديها اللذين نضعهما فى عيوننا ونطبق عليهما الأجفان لما فعلته هذه السيدة العظيمة لنا نحن أولاد أختها قبل أن تكون أما لولديها مصطفى ومحمود. هذه خالتى التى كانت تطبخ لتسعة أفراد وتغسل

لتسعة أفراد وتنظف البيت وتطحن الطحين وتفعل كل ذلك وهى فى منتهى الرضا، لذا كانت هديتها هاتان الزهرتين اللتان نشرا العطر فى أنحاء بيتنا الذى حفظ الجميل لأمنا الجديدة.. وقد جاءت فى وقتها حيث سأبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتى حيث السفر إلى مدينة طنطا وكلية الحقوق.